

أمالى القالى

بقلم : د . أحمد كمال زكى

الاطار التاريخى العام

فى عام ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م وقيل سنة ثمانين ومائتين ولد أبو على القالى، وكان الخليفة فى بغداد المعتضد العباسى وأمير مصر خمارويه بن أحمد ابن طولون وأمير الأندلس عبد الله بن محمد الأموى ، أما فى الشرق فقد كانت الدولة السامانية توطد سلطانها على حساب الخلافة التى كشف عن ضعفها ما قام به الزنج فى ثورتهم الفاشلة من ناحية وما يدبره الاسماعيليون فى المجالين السياسى والاجتماعى من ناحية أخرى .

أما الخطر البيزنطى فقد كان ماثلا فى المعارك التى كان يخوضها المسلمون دائما فى منطقة الثغور، حيث ولد أبو على القالى ، وحيث أتيج ليفاعته أن تلتقى المجاهدين على عصبية عربية لم يكن من السهل أن تغيب فى زحام النتائج الهلينة .

وكانت السنون التالية - وقد تفتحت على القرن الرابع - من الفترات الحاسمة فى تاريخ العروبة والاسلام ، فقد ضاعت هبة العباسيين أو لم يبق لهم الا شعارات الخلافة الدينية ، وأقام

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ / ٩١٢ - ٩٦١) دعائم الخلافة الأموية فى قرطبة، وأسرع الزياريون يؤسسون دولتهم سنة ٣١٦ / ٩٢٧ فى إقليم طبرستان ومن بعدهم بسنوات أربع ظهر البويهيون على مسرح الأحداث فى موجة عارمة اندفعت من ايران ثم طغت على بغداد عام ٣٣٤ / ٩٤٤ .

وعلى الرغم من الفتن التى كانت تنشب من جراء اصطدام ملوك الامارات الجديدة برعاياهم فى ظل الخلافة العباسية البويهية ، فقد بدا واضحا أن ثمة حسا اسلاميا تذوب فيه العصبيات الأرومية وآية ذلك وقوف الجميع تحت راية القرآن أمام الروم فى آسيا الصغرى وفى الأندلس على حد سواء وآيته أيضا اجتماع الكلمة على تحدى القرامطة برغم كل مالها من صلات بالاسماعيلية ذات الطابع الشعبى العام .

ومن المؤكد أن حياة المسلمين كانت فى القرن الرابع معقدة للغاية ، والا فما الذى دفع بالبويهين - مثلا - الى اهمال الأدب الفارسى وتشجيع اللسان العربى حتى يظهر فيهم ابن العميد

والصاحب بن عباد ثم بدیع الزمان وأبو بكر الخوارزمي وأبو حیان التوحیدی ثم يسدحهم المتنبي في شخص ابن العميد ؟

وما الذي كان يدفعهم الى الابقاء على خليفة بغداد مع أنه كان من الضعف غالبا ومن التهلكة أحيانا بحيث يسمح باضطهاد الرعية ؟

وما الذي كان يحدوهم الى العلم وهم على غنى الملوك والوزراء في فاقة كانت تحتاج منهم الى سعى دائب وراء رزق الكفاف ؟

ثم كيف تفسر رغبتهم في اقتناء الرقيق وفي اصطناع التنسك والتصوف ورغبتهم في الاباحية وفي التحفظ ؟

قد نقول : الناس فئات وطبقات أو مشارب وأهواء، ولكن متى كان هذا وحده فيصلا في ابراز جزء ضخم من تاريخنا على هذا النحو من التعقيد العجيب ؟ الأمر على أي حال للمؤرخين يفلسفونه أو يناقشونه على مستوى خطورة الأحداث التي كانت تشكل حياة العصر الذي تتعرض له .

لكن مع تردد السيادة السياسية بين التوسع والانكماش في العراق أو في مصر أو في الأندلس أو في أي بلد آخر ، كان هناك شيء ينمو أبدا . وهذا الشيء هو المجتمع الاسلامي ، وقد ميزه عقل عرف كيف يستغل كل طاقاته في حركات البناء الثقافية . وربما كان أحد القوم يحتاج الى من يرشده الى الحياة الأفضل فيتاجر ، أو يزيد غرس أرضه ، أو يقيم عمرا ما ، الا أن الرحلة كانت تلعب دورا أساسيا في أغلب الأحيان . ومن هنا نستطيع أن نفسر لماذا كان شاعر كالتنبي ينفق أيامه مسافرا أبدا ، كما نستطيع أن نعرف ماذا كان وراء رحلة أبي على القالي نفسه الى قرطبة !

ولقد اقتضت ظروف المجتمع الجديد أن تندثر مدن وتقام مدن ، كما تهيأ بعض البلدان أن يتسع فيها العمران بحيث تأخذ الطابع الحضاري الذي يبعد بها عن معالم الريف ويفرقها في ألوان الترف والزينة والأبهة . فلا نعجب أن تموت الكوفة أو تكاد ، وينتهي تسلط البصرة المادي والأدبي أو يكاد . ويخمل ذكر بغداد الا اذا تهيأ لها الخليفة القوي ، وتبرز قرطبة الى الحد الذي يجعل كثيرا من المؤرخين والرحالة يقررون أنها لم تكن ذات نظير على الاطلاق .

على أن ذلك لم يغير من الخطوط العريضة في حياة المسلمين العامة ، فالأغنياء هم السادة ، ويرز الوزار من صفوف الكتاب غالبا ، وتفتح القصور للمجندين والشعراء ، ويظل للمسجد أولوية التعليم والتثقيف .

نرى ذلك في العراق ونراه في مصر والمغرب كما نراه في الأندلس ، وكان الذوق في كل بلد على رغم مسحة الاقليمية فيه - يجمع على أن « العلم » العربي له قصب السبق حيث يأخذ المتأدبون أنفسهم بغوامض العربية وشواردها ، ولا بأس اذا كان الشعر مع حسنه غريبا رصينا . وقد عاب الزبيدي على أن مؤدبي عصره مالوا عن ذلك في سبيل حرصهم على « اقامة » الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وماشاكلها ومن تقريب المعاني لهم في ذلك !

والزبيدي نحوي روى عن القالي مع أنه كان أستاذ قرطبة الأول ، وإثاره القالي يضع لعصره ملامحه الأساسية . فليس بد من أن تتصور القرن الرابع ساعيا وراء بعث علوم العربية حريصا على الاعتلال لمسائلها وواضعا فيها أشهر كتبها ومعاجمها .

تلك النسبة رجاء أن ينتفع بها لأن قاليقلا كانت من أبرز ثغور المسلمين ، وهذا أو ذاك على أى حال يرينا هوان نشأته وضعف حيلته . ولعله أن يترك آثاره فيما بعد ، اذ سيبدو مترددا وجلا يخشى مواجهة الناس فى الحفول والمجتمعات .

ولقد كانت بغداد فى الحق اذ ذاك منتجع العلماء ، وفى مسجدھا الجامع تحلق حول شيوخ اللغة والأدب من التلاميذ أمثال القالى آلاف . وحفلت مكتباتها الخاصة والعامة ودكاكين الوراقين بالكتب النادرة مروية عن شيوخ العربية والدين من أمثال أبى عمرو بن العلاء والأصمعى ، وبين أيدي الناس تدور كتب الجاحظ . ويتسامع الجميع بأبى الفرج كما تسامعوا بالصولى والمبرد . هذا بكامله فى اللغة والأدب ، وذاك بأوراقه فى الشعر والشعراء .

وحين استقر الرأى على أن تكون الكتب العربية من قبيل المنتخبات - وهذه مرحلة متأخرة من مراحل التأليف العربى - فيظهر كتاب « عيون الاخبار » وكتاب « الكامل » بعد « البيان والتبيين » فى بغداد و « العقد الفريد » لابن عبد ربه فى قرطبة كان ذلك نقطة تحول فى الحياة الفكرية الاسلامية . اذ كان معناه أن كل القديم لا يصلح للعصر ، وأن الظواهر التى يتصدى لها المجتمع فى تجاربه اليومية لا يمكن أن يصلح لها الا ما يصلح للحياة فى خطوطها العامة خارج نطاق الفردية الضيقة . واذن فليدرس الانسان فى حياته الاجتماعية لا فى حياته الخاصة ، واذن أيضا لابد من أن يكون التاريخ أو الماضى فى مستوى الحاجة النابعة من الوجود الجماعى كله . فقد يعجب راوية بمرثية لابن نورية ، ولكن اعجابه يظل قضية شخصية مالم تجاوز الحاجة هذه الدائرة المحدودة الى معنى آخر بحث

كان مولد القالى بمنازجرد قرب بحيرة وان التى تقع شرقى الفرات فى ديار بكر ، وأسمه كما رواه ياقوت فى « معجم الأدباء » اسماعيل بن القاسم ابن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان وبهذه الرواية يسقط جده سلمان أبو سليمان على ما فى « وفيات الأعيان » وكان مولى عبد الملك ابن مروان الأموى . كنيته أبو على ، ويتنسب الى بغداد لأنه مكث فيها خمسة وعشرين عاما ، كما نسب زورا الى قاليقلا احدى قرى منازجرد فى الثغور الشمالية بأرمينيا فغلب ذلك عليه .

ويبدو أن سنوات صباه كانت من الهدوء بحيث لم تدفع به كما دفعت كثيرين - الى ترك الثغور المعرضة لضربات البيزنطيين ، ويبدو أنه تعلم فى الكتاب على عادة صغار القوم - لأنه لو كان من بيت جاه لأتى له بالمعلمين فى بيته وهو لم يذكر ذلك قط - وتدل آثاره على أنه شغف أساسا بعلوم الأدب واللغة . واذا كانت كتب الأخبار والطبقات لا تعنى برصد شىء عن سنيه الأولى فقد كانت تلك السنة المتبعة ، فضلا عن انه - فيما يظهر - لم يسجل شيئا ذا بال ، وماذا كان يستطيع غلام عادى فى الخامسة عشر أن يفعل ؟

وعلى أى حال فقد ارتحل الى بغداد - لسبب لعله علمى - سنة ثلاث وثلاثمائة وفيها مكث خمسة وعشرين عاما ، فيكون بذلك قارب الأربعين ، وهى السن التى تكفل له الشهرة والمجد الحقيقيين بخاصة اذا كان طلبة طيب السيرة .

وتقع تسميته بالقالى فى أول هذه المرحلة ، فقد كان فى نهر من أهل قاليقلا - وكان هؤلاء يكرمون لمكاتتهم - فنسب اليهم ، ويقال انه افتعل

عن مثله المؤدبون الذين غاب عليهم الزبيدي مسلّكهم .

ومن هنا نفهم كيف « قسم » ابن قتيبة معارفه في أبواب كل باب بجمع المتشابه في عنوان واحد ، وكيف هذا حذوه ابن عبد ربه في عقده ، وقصر عنهما المبرد وإن يكن حرص على أن يفرد للخوارج والتشبيه بآيين مستقلين عن بقية الكتاب .

على أن القالي للأسف لم يتنبه إلى ذلك تماما ، ربما لأنه ظل حبيس « العربية » ولم يتصل بالهلينية والفارسية ، وربما لأنه فطر على التقليد برغم أنه فتح عينيه على مناهج المتكلمين المتحررة . والأمر على أى حال يتصل بتردده ، وهذا شيء ينبع عادة من حالات معينة للخوف ، ويصد الإنسان عن الانطلاقة الرشيدة .

وهكذا ظهر بوضوح أين وضع القالي نفسه منذ دخل بغداد ، فهو يسمع إلى الحديث النبوي من أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي (ت ٣١٧) وأبي بكر عبد الله السجستاني (ت ٣١٦) وأبي سعيد بن الحسن العدوي (ت ٣١٩) وابن صاعد والمحاملي وابن مجاهد المقرئ وكلهم من الذين تضبط علمهم الرواية دون محاولة لأعمال الفكر على مثال صنيع المعتزلة وأحرار الاسماعيلية . بل انه عندما قصد الموصل لم يلزم إلا أبا يعلى الموصلى ، وهو من هو في التزمم واتقان العلم على مذهب الأولين .

والشيء نفسه تراه في دراسته للأدب ، فهو يجلس إلى الزجاج والأخفش الصغير وابن درستويه وابن أبي الأزهري تلاميذ المبرد المحافظين ، وهو يلزم ابن دريد - أشهر العلماء وأعلم الشعراء - ويعجب برواياته الغريبة فيحفظ عنه ويدون الكثير في اللغات والأشعار والأنساب ،

ولما مات سنة ٣٢١ قال : لا أرجو أن أقيم بعده في بغداد !

وربما جلس إلى ابن قتيبة وجحظة فلا يروى عنهما إلا ما يتصل باللغة والنوادر ، ولم يعجب على أى حال بتوسع الأول فيما حصل حتى جمع إلى ما هو عربى شتيتا من تراث الفرس والروم ، وبظرف الثانى فيما صدر عنه فى حياته الشخصية والعلمية .

وهكذا بلور شخصيته ، وإذا هو بعد قليل يغدو اماما ثبنا وحجة ثقة ، وإذا الآراء تجمع على أنه راوية للغة والاخبار فى غاية التقييد والضبط ، وإن تكن روايته للأشعار لا تصل إلى مستوى اتقانه اللغة .

وكانت السنوات الخمس والعشرون التى أنفقها فى بغداد قد نهت إليه القاصى فتقرب منه ، وأرسل إليه من الأندلس خليفة قرطبة الأموى يستدعيه . ولأول مرة يدع تردده جانبا ويحزم أمره على السفر مؤملا خيرا بعد حياة املاق اضطرته فى كثير من الأحيان إلى بيع كتبه !

أما هذا الخليفة وكان عبد الرحمن الناصر الذى أقام للعلم سوقا نافقة جلبت إليها البضائع من كل قطر . ويقول عبد الواحد المراكشى صاحب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » كما يقول ياقوت فى « معجم الأدباء » ان ابنه الحكم المحب للعلوم والمكرم أهلها هو الذى بادر بدعوته ، فقصده المغرب فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة مارا بمصر حيث علم بوفاة ابن عبد ربه ، ثم وصل إلى الأندلس بعد ثلاث سنوات ، ويروى المقرئ فى « نفح الطيب » أن الحكم - وكان يتصرف فى أمر أبيه الناصر كالوزير - أمر ابن رماحس أحد عمال الدولة الكبار أن يستقبله فى وفد من

وجوه الرعية ثم يصحبه الى قرطبة في موكب جليل، فدخلها في شعبان من عام ثلاثين وثلاثمائة بعد رحلة تذاكر فيها « الصحاب » الأدب وتناشدوا الأشعار وتقدمه بعضهم على ما سنرى .

وفي النفر أن الناصر أحسن منزلته وأعلى قدره واختصه بولده الحكيم فأفاده بأحسن ما عنده ولم ييخل عليه بشيء ، وظل يتعهد ويدفع عنه حساده حتى بعد أن أصبحت الخلافة اليه . وأكبر الظن أن أبا علي لم يجد الطريق مهذا دائما ، فعلى الرغم من أن أغلب علماء الأندلس اعترفوا بفضلته حتى ليجلس بين يديه في جامع قرطبة وعند الخليفة الزبيدي صاحب أخبار النحويين ومختصر كتاب العين - مع أنه كان حينذاك اماما في الأدب - كان ثمة من يكره هذه الدالة وحدث في عام ست وثلاثين وثلاثمائة أن طلب إلى أبي علي أن يرتجل خطبة في وفود ملوك الروم للناصر . فلما شاهد الجمع عاوده تردده وركبته الوسوس فلم يستطع وقوفا ، وخانه لسانه . وهنا يشب أحد منافسيه واسمه منذر بن سعيد البلوطي - وقد ولي قضاء الجماعة والخطبة في جامع الزهراء - فخطب على غير أهبة ، وختم خطبته التي ظفرت باستحسان الجميع بأبيات ندد فيها بالعالم البغدادي :

هذا المقام الذي ما عابه فند

لكن صاحبه أزرى به البلد

لو كنت فيهم غريبا كنت مطرfa

لكننى منهم فاغتالنى النكد

لولا الخلافة أبقي الله مهجتها

ما كنت أبقي بأرض ما بها أحد

وكان في القصر إذ ذاك جماعة من أهل الأدب والشعر منهم - عدا الزبيدي والبلوطي - المصحفي أبو الحسن جعفر الشاعر وابن رفاعة اللبيري وابن

القوطية ويوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي الذي طالما مدحه بالشعر الجميل والقزاز وأحمد بن أبان بن سيد الزبيدي وابن مغيث القاضي وثابت وابنه قاسم ، وكان هؤلاء بين الاخلاص له والبرم به لا ينكرون عليه علمه قط وإن أخذ بعضهم عليه - كأبن رفاعة اللبيري - ضعفه في حفظ بعض الشعر وبالتالي عجزه عن اقامة وزنه . وقد تصدى ابن رفاعة له وهو معه في موكب ابن روماحس في قرطبة ، إذ كان القالي يروى بيت عبدة ابن الطيب الذي أنشده لعبد الملك بن مروان عندما سأل عن أفضل المناديل ، فقال :

ثمت قمنا الى جرد مسومة

أعرافها لأيدينا ومناديل

ولما استعاد ابن رفاعة القالي البيت مرتين لم يروه الا وفيه « أعرافها » والصواب « أعرافهن » فانصرف عنه وهو يقول على ما يروى المقرئ في النفر : مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة !

الأمر على أى حال لم يكن من الضخامة بحيث يشكل خطورة على مكانة القالي بل الحقيقة أن الناس جميعا - كما يقول ابن الفرضي في بغية الملتبس - شهدوا له بالتقدم والاجادة وسمعوا منه وظلوا يقرأون عليه كتب اللغة والاخبار والامالى حتى وافته منيته في ربيع الآخر سنة ٣٥٦ - ٩٦٧ أى بعد ولاية الحكم خلافة قرطبة بست سنوات.

مؤلفاته

تلك الصفحات ! قليلة التي قدمناها عن حياة القالي تضعه في صف مع رواة العربية وآدابها ،

وقال هو نفسه لأهل الأندلس على ما يروى المقرئ:
ان علمى على رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عنى
ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت .

ويقول الضبى فى بغية المتمس انه كان أحفظ
أهل زمانه وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلم النحو
على مذهب البصريين ، وفد حدث بمثل هذا ابن
خلكان وياقوت والحميدى ، غير أن من المؤكد
أنهم زادوا شيئاً فى روايته الشعر ، لأن فى أماليه
أشياء فى النظم تؤخذ عليه ويراجع فيها . والعجيب
بعد هذا أن الحميدى وياقوت ، يشتمان له
شعرا يجب به على فائبة للبلوطى ، فقد بعث اليه
هذا يستعير منه كتابا بقوله :

بحق رثم مهفف وصدغه المتعطف
أبعث الى بجزء من الغريب المصنف
والغريب المصنف كتاب للشيبانى النحوى
الكوفى فى غريب الحديث ، فأرسله اليه أبو على
بأبيات يقول فيها وقد أسقط ياقوت الثانى
منها :

وحق در تآلف بفيك أى تآلف
لأبعث بما قد حوى الغريب المصنف
ولند بعثت بنفس اليك ما كنت أسرف

وفى «معجم الأدباء» أن أبا على انقطع بالأندلس
بقية عمره وهناك أملى كتبه أكثرها عن ظهر
قلب ، وبلغ الأمر ببعض شائنيه أنهم حاولوا طمس
تراثه بعد وفاته فلم يستطيعوا . يقول المقرئ
عن ابن بسام انه لما وفد صاعد على المنصور بن
أبى عامر فى عهد هشام المؤيد طلب اليه أن يعفى
بكتابات آتار أبى على القالى « فالفى سيفه كهاما
وسحابه جهاما ، من رجل يتكلم بملء فيه ولا يوثق
بكل ما يذره ولا ما يأتيه » . وبعد وفاته بنحو قرن

يضع أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد
البكرى - وكان وزيرا من مرسية - يضع كتابا
يشنع فيه عليه سماه « التنبيه على أوهام أبى
على القالى فى أماليه » وان زعم أنه لا يقصد فيه
أن يكون معاندا متعسفا .

ومهما يكن من شىء فان ياقوت يقدم قائمة
بأشهر مؤلفاته تتضمن سبعة كتب عدا «الأمالى»
وما كان يعليه ارتجالا ، وهى :

١ - كتاب الممدود والمقصود ، رتبته على التفعيل
ومخرج الحروف من الحلق ، مستقص فى بابها ،
لا يشذ منه شىء فى معناه ، لم يوضع مثله .

٢ - كتاب البارع فى اللغة على حروف المعجم
يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة . وقال عنه الزبيدى
« لانعلم أحدا من المتقدمين ألف مثله » . وقال
الشيخ الامام أبو محمد العربى « كتاب البارع
لأبى على القالى يحتوى على مائة مجلد لم يصنف
مثله فى الاحاطة والاستيعاب » ولكن الناس
لم يميلوا اليه أو لم يعرجوا عليه كما يقول
السيوطى .

٣ - كتاب الابل وتاجها وهو يمثل حلقة
متأخرة من حلقات تأليف اللغويين فى الحيوان
بعامة ، ومثله كتاب اسمه الخيل وشياتها .

٤ - كتاب فعلت وأفعلت ، وهو من كتب
الأبنية التى تعنى ببعض الصيغ الخاصة من الأفعال
التاريخ .

٥ - كتاب مقاتل الفرسان ، تغلب عليه عناصر
المعلقات السبع فى المحل الأول .

٧ - كتاب حلى الانسان ، والتأليف فى الانسان بدأ قبل الخليل ولكن وصل الى نظامه الأمثل عند الاصمعى فلم يستطع اللغويون من بعده أن يتحرروا منه .

وثمة كتب أخرى مشهورة منها « الأمثال » وهو مرتب على حروف المعجم يقرر الزركلى أنه خطى موجود ، ومنها « كتاب النوادر » ألحق بالأمالى أو بذيل الأمالى لأنه لا يخرج كثيرا عنها وان كان أقل احتفالا بمسائل اللغة ، ويبدأ بأخبار عروة ابن حزام مع ابنة عمه عفراء مثبتا نونيته المشهورة التى يختلف الرواة فى بعض أبياتها ، ومنها :

خلى من عليا هلال بن عامر
بصنعاء عوجا اليوم وانتظرانى
ولا تزهدا فى الأجر عندى وأجملا
فانكما بى اليوم مبتليان

كتاب الأمالى

أمله أبو على القالى على تلاميذه من بنى ملول وغيرهم بجامع الزهراء كل يوم خميس ، وقد جعله ستة عشر جزءا للامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءا وأهداه للحاكم على مقرر فى المقدمة وبعد أن قرأه ابن حزم قال انه « مبار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد ، ولئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحوا وخبرا فان كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا »

ولسنا نعرف ماذا كان شكل الكتاب فى أول تداوله ولكن النسختين المطبوعتين منه - وقد طبع لأول مرة بمطبعة بولاق سنة ١٣٢٢ ثم بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٢٦ - تبينان أنه جزءان ألحق بهما جزء ثالث يتضمن « ذيل النوادر » و « النوادر » ومادته على ما يقرر الدارسون من

أغزر ما يعترف منه أئمة اللغة والأدب وتشهد له بدقة الحفظ .

ويقول السيوطى فى « المزهر » ان أبا على أملى خمسة مجلدات - ومن المؤكد أن طريقته فيها كانت كطريقة المحدثين - لا يظهر بوضوح أن المقصود بها كتابنا هذا وحده .

واذا كان السيوطى يذكر أن أعلى وظائف الحافظ فى اللغة الاملاء كما أن الحفاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الاملاء ، فان القالى الذى طالما دعا الى القيد والكتابة مستهديا بأقوال لعيسى بن عمر والأخفش والأصمعى وابن دريد الذى تخرج عليه كان من أبرز المملين ، واحتفل بمن كان يقيد فقال مثلا فى كتابه المقصور والممدود « قال عيسى بن عمر : كنت أنسخ بالليل حتى ينقطع سوائى »

ولقد كان القرن الثالث الهجرى قرن الاملاء بحق ، وكثيرا ما كان المتكلمون واللغويون يملون ويطيئون . يروى ابن المرتضى فى « المعتزلة » أن الجبائى أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة ، وما رأى ينظر فى كتاب الا يوما فى زيغ الخوارزمى ويروى السيوطى أن الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ - ٩٥٠ كان آخر من أملى من اللغويين ، فى حين بقى المحدثون يملون .

وكأن أبا على عاش أزهى عصور الاملاء ، الا أنه لم يحاول أن يفيد بعملية تخلص علم اللغة - كما تخلص علم الكلام - من طريقة الفقهاء ومناهجهم حتى من الناحية الشكلية فألف كتابه بلا ضابط ولا قيود جامعا فيه شتى من اللغة متصلة بالقصص والنوادر والتاريخ ، وان نص أحيانا على كلمة « مجلس » فى بعض الموضوعات

لكن يجب أن نقرر أن هذه الطريقة - أى إيراد الأخبار والقصص - هى أمثل ما يمكن أن يتبع فى تفسير الغريب من الألفاظ ، وقد فعل المبرد ذلك فى كتابه « الكامل فى اللغة والأدب » بل فعله أستاذه ابن دريد حتى فى معجمه الكبير الجمهرة فبعد أن انتهى من أبواب الخماسى أثبت بعض أبواب تعالج الموضوعات الخاصة التى تتناولها عادة الرسائل الصغيرة بالبحث ، ومنهجه فيها لا يختلف عن منهج المبرد وكل أصحاب النوادر . فهى ألفاظ غريبة أو مغلقة المعنى تأتى بدون نظام أو صلة ، وتفسر ، ثم يورد عليها شواهد من الشعر والقرآن الكريم .

وكذا فعل القالى ، وزاد القصص بخاصة فى كتابه « النوادر » الذى إذا جمعنا مافيه من المفردات والعبارات اللغوية لم نشغل به الا خمس صفحات تقريبا والكتاب كله خمس وستون بحسب طبعة دار الكتب المتداولة ، والمدهش أن كثيرا ما يسمى « الأمالى » كله بالنوادر لتشابه الموضوعات من ناحية ولأنها أملت من ناحية أخرى .

ولعلنا إذا أثبتنا هنا استهلال أبى على لأماليه فهما أسلوبه العام فى الكتاب ، يقول بعد المقدمة التى يتيه فيها حتى ليقر لنفسه بأنه حوى خطير العلم وأحرز فيه رفيعه ثم قصد به الحكم - أجل الناس بعد أبيه خطرا وأغزرهم علما - مع أنه يستعيز بالله من العجب والبطر « قال أبو اسماعيل ابن القاسم البغدادى : قرأ أبو عمرو بن العلاء (ما نسخ من آية أو نساءها) على معنى أو توخاها والعرب تقول نساء الله فى أجلك ، وأنساء الله أجلك أى آخر الله أجلك . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من سره النساء فى الأجل والسعة فى الرزق فليصل رحمه » والنساء التأخير ، يقال بعتة بنساء

وبنسيئة أى بتأخير ، وأنسأته البيع ، وقال الله عز وجل (انما النسيء زيادة فى الكفر) والمعنى فيه على ماحدثنى أبو بكر بن الأبارى رحمه الله أنهم كانوا اذا صدروا عن منى قام رجل من بنى كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة فقال : أنا الذى لا أعاب ولا يرد لى قضاء ، فيقولون له : أنسئنا شهرا ، أى أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها فى صفر . وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا تمكنهم الاغارة فيها ، لأن معاشهم كان من الاغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفر . فاذا كان فى السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحل لهم صفر ، فقال الله عز وجل (انما النسيء زيادة فى الكفر) وقال الشاعر :

ألسنا الناسئين على معد

شهور الحل نجعلها حراما

وقال الآخر .. وهكذا حتى يستوفى رواية الشعر ، فاذا انتهى أو أحس أنه انتهى ، عقب بمطلب كلام على مادة « لحن » وقوله تعالى « ولتعرفنهم فى لحن القول » أى فى معنى القول - ١ : ٤ ط . دارالكتب سنة ١٩٢٦ - ناقلا أيضا عن ابن الأبارى ويتردد ذكر هذا العالم مع ابن الأبارى فى ثنايا الكتاب ، حتى وهم بعض الدارسين فى تلازمهما عنده فزعموا - كما فعل كرونكو فى المجلد السابع من مجلة اسلاميات - أن كتابه البارع مأخوذ فى جملة عنهما مع أنه لم يعتمد أحدهما أساسا وآخر ابن دريد فى المرتبة وعدد الروايات عن ابن الأبارى .

على أننا لا نريد أن نستطرد ، وليس يغنيننا على أى حال المجهود الذى قام به كرونكو فى احصاء أسانيد الأمالى وتخصيص نصفها لابن دريد

فهذا لم يؤثر قط في منهجه العام ، وهو على ذلك النحو الذى رأينا من المعارف اللغوية والأدبية . ولقد تطول نوادره ، غير أنها تظل فى نهاية الأمر صورا موجزة لمجالس خاطفة كان صاحبها الذى تعود الرحلة - ومجيئه قرطبة كان رحلة ونوه هو فى أماليه بالسفر وتحمل طول الغربة - لا يريد أكثر من عروض لمناظر سفره متعددة ربما ليكشف عن طول تقيبه فى الأسفار حتى ليقول - مثلا - بجرأة فى حديث لأبى الميلاس عن ذى الرمة وقد ذكر الفجرم أى الجوز « لم أجد هذه الكلمة فى كتب اللغويين » . ٢ : ٥

ولقد يبدو حتى الآن أن شرح الغريب كان وحده هدف القالى فى أمياله ، لكن هذا العالم الذى وضع « كتاب البارع فى اللغة » غاضا طرفه عن التقدم الذى أحرزه ابن دريد فى منهج المعاجم وراجعا الى ترتيب الحروف بحسب المخارج - وكان فى ذلك أقرب الى ترتيب سيبويه - لابد أن يتجه الى بعض الأبنية الخاصة التى لاتخضع فى تكوينها للتقاليب التى تشبه تقاليب الخليل او ابن دريد ولكنها تخضع لعمليات استبدال فى الحروف مع بقاء المعنى على جاله ، فنقول عن الأصمعى « رأيت فى أرض بنى فلان نعاة حسنة و «لعاة» أى التبت الناعم فى أول ما يبدو ، ونقول عن أبى عبيدة « الساسم والساسب » شجر ، ونقول عن الاصمعى ثانية « الكرم من سوسه ومن توسه » أى من خليقته ، ويقال أيضا « رجل حفيصا وحفيتا » اذا كان ضخم البطن الى انقصر ماهو ٢ : ٤١ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٨ على سبيل المثال .

ومثل هذا الصنيع يدل فى الحقيقة على سعة المواد اللغوية التى فضل بها على غيره وقدم .

وكأنما كان يعجبه ذلك ، فيعالج بين الحين والحين شتى مواد فيما تعاقب فيه الحاء الجيم ، والهمزة العين ، والنون الميم ، والهاء الحاء ، والدال التاء ، والصاد الزاى ، والسين الشين ، والعين الغين ، واللام الراء ، كما يعالج ما يكون بالصاد والطاء ، وبالياء والحاء ، وبالدال والطاء ، وبالتاء والطاء . ويقف عندما يأتى بالدال واللام ، وبالياء والهمزة وبالياء والواو ، وما يقال بالدال والذال والكاف والفاء وغير ذلك . ثم لا ينسى اختلاف لغات العرب ، فيتحدث عن ابدال الياء جيما عند فقيم ٢ : ٧٧ وعن لعل عند شتى القبائل ٢ : ١٣٤ كما لا ينسى الألفاظ التى معناها واحد وبعض حروفها مختلفة ٢ :

١٧٧ .

وهنا ينبغي أن ننبه الى شيئين : أولهما اختفاء ظاهرة الاعراب تقريبا من الكتاب وقد عرفنا أنه لم يكن نحويا فيه ، وان كان يحرص دائما على التقييد . وفى هذا الصدد لانكاد نعثر الا على بدوات اعراية منها ما أورده عن عيسى بن عمر وأبى عمر بن العلاء فى اعراب « ليس الطيب الا المسك » ٣ : ٣٩

والشئ الثانى تداخل كتابيه البارع - الذى مات قبل اتسامه - والأمالى معا فى بعض الأبنية ، ويمكن لأى قارئ أن ينظر فى الكتاب الأول أو فيما تبقى منه - وهو عبارة عن قطعة فى المكتبة الأهلية بباريس وقطعة أكبر منها فى المتحف البريطانى وكتاهما برسم أندلسى - ثم يعيد النظر فى الأمالى ليرى مصداق ذلك من جانب ، ومن جانب آخر يرى كيف كان الايجاز سمة البحث كله . وبرغم هذا تتبين أن «المواد» هنا وهنالك ليست للقالى وانما هى لابن السكيت مثلا والخليل والأصمعى وأبى عبيدة . وهو يصرخ بذلك دون مواربة ، وقد

يردد الاسم الواحد فى الصفحة . أكثر من مرة .

ويفضى بنا هذا الى تقويم « البارع » نفسه ، فقد طغت عليه الظواهر الأدبية . وآية ذلك الاستشهاد الطويل بالشعر ، وذكر النوادر والقصص التى تقوم عليها كتب الأخبار والأمالى . وأكبر الظن أنه لهذا ونحوه لم ينفق فى سوق المعاجم اللغوية ، كما نفق « المستدرک » الذى وضعه تلميذه الزبيدى وكما نفق « التهذيب » الذى يطبع هذه الأيام للازهرى .

ونعود الى الأمالى بعد ذلك ، فنقول ان هذه العناية اللغوية لم تخف وراءها « الأديب » و « الاخبارى » الكبير . وفى رأى أن « الأمالى » الذى عجز عن أن يرسم شخصية لغوية محددة — كما عجز البارع تماما — لم يعجز قط عن أن يرسم شخصية الراوية المحقق الذى اذا عالج مادة لغوية استطرد الى ما يتصل بها من أسباب فتحدث عن الخيل والابل والانسان والنبات ، كما تحدث عن الأمثال والمسجعات والخطب حديثه عن الأعلام العربية والاسلامية مع قلة الالتفات الى المتأخرين من أمثال أبى تمام والبحترى .

ولابد أن نقرر هنا أن القالى اعتمد على قاعدتين أساسيتين : أولاهما ما أثبتته فى بعض كتبه عن الانسان والحيوان ، وثانيتهما ما حفظه هو من ماثورات نقلت اليه شفاهاً أو أخذها من أمالى ابن الأنبارى ونوادر ابن الاعرابى والأصمعى وابدال ابن السكيت وخيل أبى عبيدة وبعض مدونات أبى سعيد السكرى وغيرها .

أما ما أخذه من كتبه فواضح فيما أورده فى الأمالى عن أسماء الزوجة ، وأسماء الشخص ، وأسماء الرجل يجب محادثة النساء ، وما قالتها

امراة أعرابية لأمرها تصف زوجها بمكارم الأخلاق ١ : ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٢١ وتقسيم النساء الى ثلاثة أصرب ، والرجال الى مثلها ، وهجو بعض الأعراب لأولاده ، وسؤال بعض نساء العرب عن آبائهن ٢ : ١٥٦ ، ٢١٩ وما وصف به بعض الأعراب النساء فى أسنانهن من بنت عشر الى مائة ، وأسماء الانسان فى كل سن من أسنانه ٣ : ٣٣ ، ٣٨ ، ١٢٦ فهذا كله صلة وثيقة بما سطره فى كتاب حلى الانسان .

ونستطيع اذا نظرنا الى كتابيه فى الخيل والابل أن نلتقى مواد نراها بنفسها فى الأمالى عندما يتحدث مؤلفها عن ترتيب أسنان الابل وأسمائها ١ : ٢١ وعن اكرم الابل ، وما يستحب من الفرس تفصيلا ، وما فى الفرس من أسماء الطير ٢ : ٢٢١ ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٣ : ١٩١ ، ١٩٣

وأما ما حفظه ونقله فيمكن حصره فى الشعر وفى الأسجاع والأمثال والخطب ، هذا عد الروايات والقصص التى لم يكن يلتزم فيها كلها لدقة بحيث يقترب بها من صورتها الأولى . وله عذره ، لأن الأخبار — بخاصة التى يطول منها — عرضه للتغيير أبداً ، وهذا سر ما نراه من خلاف بين ما يشته هو عن واقعة ما وما يشته غيره . ويكفي أن نقرأ الذى أملاه عن الجاحظ وعروة بن حزام والذى دارعنها عند غيره لنعرف الفارق . وبعض ما نسخه عن ابن دريد وقد شك فى جزء منه أو أخطأ فيه الشيخ — وعزا البكرى ذلك فى تبينه اليه — نجد فيه خلافا اذا قورن بما روى به فى كتب أخرى غير الأمالى .

وتحدث عن الشعر ، وهنا تحضرنا حكاية يشتهها الزبيدى فى طبقاته وتكشف عن الطابع الذى كان يؤثر أن يغلب عليه . نقول الحكاية

ان الرياحى حينما نظم احدى رثائياته على مذهب العرب - يعنى القدماء المحافظين - خارجا فيها على طريقة المحدثين لم يعجب بها الا القالى ومن لف لفه ورفضها جمهور الناس . والواقع أنه كان لأبى على فى الشعر مدرسة خاصة - وقد فاضل فى أماليه بين أبى تمام والبحترى وشرح السبع الطوال وتكلم فى الذيل عن المفضليات - برغم كل ما يحكى عن سقطاته العروضية ، ونستطيع أن نتبين ملامح هذه المدرسة فى أماليه وفى آثار بعض تلاميذه من أمثال ابن شهيد الذى كان ينجح الى القوة والجزالة البدوية .

ولكن العجيب حقا أن ينسب القالى فى نسبة بعض الأشعار الى أصحابها فيعزوها الى أعراب مجهولين ، وأن يخلط فى ترتيب الأبيات أحيانا ويركب من مصراعين مصراعا واحدا ، ونحو ذلك وقد شدد البكرى النكير على القالى فى ذلك ، كما ندد به عندما رآه يشغل كثيرا بتفسير ظاهر لغة الشعر عن تفسير غامض بمعانيه . ونظرة عاجلة فى «كتاب التنبيه على أوهام أبى على القالى فى أماليه» تكفى فى الاستدلال على ذلك ، فثمة بيتان للاحوص يعزوهما الى أحد الأعراب المجهولين ١ : ٣٣ وثمة دالية لأعرابى خلط فيها حتى جعل منها بعض أبيات لابن الدمينه وبعض أبيات للحسين بن مطير وبعض أبيات لا يعلم قائلها ١ : ٤٣ ويؤكد البكرى أن القالى أخطأ اذ قال :

أبا عمرو كم من مهرة عربية .

من الناس قد بلت بوغد يقودها

يريد بلت فخفف ، والرواية المشهورة وهى سالمة من الضرورة «قد بلت» من قولهم : بللت به به أبل بلالة وبلولا أى صليت به

ت ٣١

الى غير ذلك من العثرات التى تثير الشك فى محفوظ القالى الشعرى . الا أن البكرى ربما تطاول على أبى على فيما ليس وراءه طائل كبير لسبب واضح هو أن كثيرا من الأخطاء يعود وزرها - كما لحظ محقق سبط اللالى - الى أشياخ أبى على وبعضها ربما عاد الى النساخين .

واذ ندع الشعر نجد الأمثال - دون أن نذكر آيات القرآن الكريم التى كانت عدته فى كل وقت - تحتل المكان التالى فى الأمالى . وهنا يجب أن نتذكر كتابه فى الأمثال ، وليس يبعد أن يكون نقل منه ، أو ربما كان ما جمعه فى «الأمالى» نواة لكتاب الأمثال مثلما كانت مواد الأمالى اللغوية نواة للبارع .

والأمثال التى يثبتها أبو على منقولة عن الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأبى عبيد القاسم ابن سلام وغيرهم ممن عنوا برصدها منذ ألف فيها خلال القرن الأول الهجرى جماعة منهم ابن كرشم . ومن الواضح أن عناية القالى بها كانت من قبيل عناية اللغويين تماما . فهى عنده فى الأغلب تشتمل على لفظ غريب يحتاج الى شرح أو صيغة نادرة الاستعمال ، وقلما جعلها نقطة للانطلاق الى أحداث مجهولة . واذن فلا محل للادعاء بأنه كان يقلد فيها ابن عبد ربه الذى ضمن كتابه «العقد الفريد» فضلا طويلا جعل عنوانه «الجوهرة فى الأمثال» لأن هذا كان من معدن مختلف ، والهدف غير الهدف .

ومن القبيل نفسه الحكم والوصايا ، غير أنه فى الأسجاع يهتم بالحكاية أساسا ، لكنه لا يكاد ينظر اليها الا بعين اللغوى الباحث عن الغريب . وعلى الرغم من أن أستاذه ابن دريد حرص على أن يحكى أربعين حكاية - فى معارض عجمية وألفاظ

بين اللغة والأدب ، ولأنه أعطى للاندرلسيين فى إطار الدراسات اللغوية والادبية نموذجاً للدأب والدقة والاخلاص . والواقع أنه لم يكن للاندرلسيين قبل القالى الذى اتخذوه حجة كما اتخذوه المشرقيون سوى ابن الفوطية وثابت وابنه ، وسوى الزبيدى الذى عاد فتتلمذ عليه بعد أن برز فى قومه كأستاذ وأثر القالى فى الأندلس على أى حال بحساجة الى بحث مستقل ليس هاهنا مكانه ، غير أنه فى رأينا وبكتاب الأمالى لا يتل عن أثره فى الشرق الإسلامى كله .

وإذا كان البكرى حاول فى التنبيه أن يندد به - كما رأينا - فإن هذا لم ينل منه قط . بل إن البكرى الذى بدا مستخفاً بمادام الأمالى ، كان هو الذى نشط لها وشرحها كما شرح معانى نواتره فى كتابين مفردين : أحدهما سماه « كتاب شرح نواتر أبى على » والآخر سماه « كتاب سسط اللآلى » فى شرح أمالى القالى « وقد قصد به المعتمد على الله - أحد خلفاء المغرب - ولم يفته فيه على أى حال أن ينبه الى سقطات أبى على . على أنه نضل يعترف له بما أحرزه فى ميدانه الواسع ، وقرر أنه كان من الحفاظ وسعة العلم والنبل ومن الثقة فى الضبط والنقل « بالمحل الذى لا يجهل وبحيث يقصر عنه من الشاء الأحفل »

أحمد كمال زكى

مختارات من الأمالى لأبى على القالى

١ - مطلب الكلام على مادة لحن

قال أبو بكر بن الانبارى رحمه الله : معنى قوله عز وجل : (ولتعرفنهم فى لحن القول) أى فى معنى القول ، وفى مذهب القول ، وأنشد للقتال الكلابى

حوشية وقد يحرف فى ألفاظها ومعانيها - سماها الحصرى فى « زهر الآداب » مقامات فإنه لم يعبأ بصنيعه ، أو قل لم يهتم بالموضوع القصصى والأحداث فى حد ذاتهما . وأشهر مختاراته عن ابن دريد حديث مصاد بن مذعور وخروجه فى طلب ابله وما أخبره به الطوارق الأربع بالحصى عن الغيب ١ : ١٤٢ وحديث اجتماع عامر بن الظرب وحممة ابن رافع عند أحد ملوك حمير وتساؤلها ٢ : ٢٧٦ وحديث خروج خمسة نفر من طيء الى سسواد بن قارب ليمتحنوا علمه ٢ : ٢٨٩

وأخيراً الخطب . ويبدو أنه لم يكن يسهل اليها لضيق ذرعه بها - وقد رأينا أنه ارتج عليه فى مجلس الناصر - وأما لأنها لم تكن تسعفه بالمادة اللغوية التى لا يعترها التغيير والعدول بها عن أصولها ، فيعتمد عليها اعتماداً على المثل القديم أو على الآية القرآنية ونحوها فى المجال الذى قيل فيه إن القالى أسس فى الأندلس أول مدرسة للدراسات اللغوية .

وإذ نحصى عدد المرات التى أورد فيها خطبة أو جزءاً من خطبة لا نجاوز الخمس عشرة أو نحوها ، فى الأول تسع وفى الثانى اثنتان أو ثلاث ، وفى الذيل والنواتر اثنتان أو ثلاث أيضاً . وكلها - سيق لغاية ماسيقت إليه الأمثال والأشعار ، وعلى المستوى الرفيع من الفصاحة ، وفى صورة بلاغية قوامها الغريب مع الجزالة والرصانة اللتين يمتاز بهما أسلوبه هو وتكشف عنه مقدمته للأمالى .

وبعد ، فهذا هو كتاب الأمالى .

أخطر مؤلف وضع فى بابه ، لا لأنه يعلم العربية ويكشف عن غوامضها ويعتلى لمسائلها ، ولكن لأنه يمثل لونا فريداً فى تراثنا العربى يمزج

والقد لحت لكم لكيما تفهسوا

ووحيت وحيأ ليس بالمرتاب

معناه : ولقد بينت لكم . واللحن بفتح الحاء :
الفطنة ، وربما أسكنوا الحاء فى الفطنة ، ورجل
لحن ، أى فطن ، قال لبيد يصف كاتباً :

متعود لحن يعيد بكفه

قلما على عسب ذبلن وبان (١)

ومن اللحن الحديث الذى يروى عن النبى
صلى الله عليه وسلم أن رجلين اختصما إليه فى
مواريث وأشياء قد درست فقال عليه السلام :
« لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر
فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فأنما أقطع له
قطعة من النار » فقال كل واحد من الرجلين :
يارسول الله ، حتى هذا لصاحبى ، فقال : « لا
ولكن اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد
منكما صاحبه . ومنه قول عمر بن عبد العزيز
رحمه الله : عجبت لمن لحن الناس كيف لا يعرف
جوامع الكلم ، أى فاطنهم . وحدثنى أبو بكر عن
أبى العباسى عن ابن الأعرابى قال : يقال قد لحن
الرجل يلحن لحنأ فهو لأحن إذا أخطأ ، ولحن يلحن
لحنأ فهو لحن ؟ إذا أصاب وفطن ، وأنشد :

وحديث أله هو مما

تشتهيه النفوس يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحياناً

نا وخير الحديث ما كان لحنأ

معناه : وتصيب أحياناً .

وحدثنى أيضاً قال حدثنا اسماعيل بن اسحاق

قال أخبرنا نصر بن على قال أخبرنا الأصمعى عن
عيسى بن عمر قال : قال معاوية للناس : كيف ابن
زياد فيكم ؟ قالوا : ظريف على أنه يلحن ، قال
فذاك أظرف له ، ذهب معاوية إلى اللحن الذى

هو الفطنة ، وذهبوا هم إلى اللحن الذى هو خطأ .
واللحن أيضاً : اللغة ، ذكره الأصمعى وأبو زيد
ومنه قول عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : تعلموا
الفرائض والسنن واللحن كما تعلمون القرآن .
فاللحن : اللغة .

وروى شريك عن أبى اسحاق عن ميسرة أنه
قال فى قوله عز وجل : (فأرسلنا عليهم سيل العرم)
العرم : ألسنة بلحن (٢) اليمن ، أى بلغة اليمن ،
وقال الشاعر :

وماهاج هذا الشوق الا حمامة

تغنت على خضراء سر قيودها

صدوح الضحى معروفة اللحن لم تزل

تقود الهوى من مسعد ويقودها

وقال الآخر (٣) :

نقد تركت فؤادك مستجناً

مطوقة على فنن تغنى

فيا واثقا بالدهر كن غير آمن

لما تنتضيه الباهظات الفواح

فلست على أيامه بمحكم

إذا فغرت فاهأ الخطوب الكوالح

مجيرك منه الصبران كنت صابرا

والا كمايهوى العدو المكاشح

(١ : ١٤٢ ، ١٤٣)

٣ - ابدال الياء جيما فى لغة فقيم

وقال الأصمعى : حدثنى خلف الأحمر قال

أنشدنى رجل من أهل البادية :

(١) حسب : جمع عسيب ، وهى جريدة من النخل مستقيمة
دقيقة .

(٢) استهما : اقترعا .

(٣) المسناة الحاجز بينى للسيل ليمسك الماء .

(٤) هو يزيد بن النعمان « راجع لسان العرب مادة لحن » .

وما صائب من نابل قذفت به

مد وممر العقدين وثيق

فيكون معنى قوله : منطق صائب ، أى قاصد
للصواب وان لم يصب ، وتلحن أحيانا ، أى تصيب
وتفطن ، ثم قال : وخير الحديث ما كان لحنا ، أى
إصابة وفطنة .

(١ : صفحة ٤ - ٧)

٢ - مطلب حديث مصادر بن مذعور وخروجه
في طلب الذود

وحدثنا أبو بكر بن دريد قال حدثنا السكن
بن سعيد عن العباسي بن هشام عن أبيه قال :

كان مصاد بن مذعور القيني رئيسا قد أخذ
مربع قومه دهرا ، وكان ذا مال فندذود من
أذواد نه فخرج في بغائها ، قال : فاني لفي طلبها
اذ هبطت واديا شجيرا كثيف الظلال وقد تفسخت
أينا . فأنخت راحلتى فى ظل شجرة وحططت رحلى
ورسفت بعيرى واضجعت فى بردى ، فاذا أربع
جوار كأنهن اللآلىء يرعين بهما لهن ، فلما خالطت
عيني السنة أقبلن حتى جلسن قريبا منى ، فى كف
كل واحدة منهن حصيات تقلبهن ، فخطت
احداهن ثم طرقت فقالت : قلن يابنات عراف ،
فى صاحب الجمل النياف ، والبرد الكشاف ، والجرم
الخفاف ثم طرقت الثانية فقالت : مضل أذواد علالد
كوم صلاحد ، منهن ثلاث مقاهد ، وأربع جدائد
شسف صمارد . ثم طرقت الثالثة فقالت : رعين
الفرع ، ثم هبطن الكرع ، بين العقدات والجرع
فقالت الرابعة : ليهبط الغائط الأفيح ، ثم ليظهر
فى الملا الصحيح ، بين سدير وأملح ، فهناك الذود
رتاع بمنعرج الأجرع . قال فقمت الى جملى
فشددت عليه رحنه وركبت ، ووالله ما سألتهن من
هن ولا ممن هن . فلما أدبرت قالت احداهن :

عمى عوفى وأبو علج المطعمان الشحم بالعشج
وبالغداة كسر البحرنج ينزع بالود وبالصيحج
أراد بالعثى . والصيحج أراد الصيصية وهى
قرن البقرة . وقال أبو عمرو بن العلاء : قلت لرجل
من بنى حنظلة : ممن أنت ؟ قال فقيسج ، فقلت . من
أيهم ؟ قال : مرج ، أراد فقيسى ومرى . وأنشد
لهيمان بن قحافة السعدى :

يطير عنها الوبر الصهايجا

قال : أراد الصهايجى من الصهبة . وقال يعقوب
ابن السكيت : بعض العرب اذا شدد الياء جعلها
جيما ، وأنشد عن ابن الأعرابى :

كأن فى أذنا بهن الشول

من عبس الصيف قرون الاجل

أراد الاليل ، وأنشد الفراء :

لاهم ان كنت قبلت حجتج

فلا يزال شاحج يأتيك بج

أقمر نهات يترى وفرتج

أراد وفرتى

٤ - حديث مساور الوراق مع بعض العشاق

وحدثنا أبو بكر بن الأنبارى رحمه الله قال
حدثنا عبد الله بن خلف الدلال قال حدثنى أبو
على الحسن بن صالح قال قال مساور الوراق
لمجنون : - كان عندنا وكان شاعرا ، وكان له بنت
عم يحبها فذهب بمقله عليها - أجز هذا
البيت :

وما الحب الا شعلة قدحت بها

عيون المها باللحظ بين الجوانج

فقال على المكان ولم يفكر :

قال أبو على : ومعنى صائب ، على مذهب
أبى العباس فى معنى البيت : قاصد ، كما قال
جميل :

أبرح فتى ان جد فى طلب ، فما له غير؟ هن نشب،
وسيثوب عن كذب ، ففزع قلبى واللّه قولها ، فقلت
وكيف هذا وقد خلفت بوادى عرجا عكاسا ؟
فركبت السميت الذى وصف لى حتى انتهيت الى
الموضع فاذا ذودى رواتع ، فضربت أعجازهن حتى
أشرفت على الوادى الذى فيه ابلى ، فاذا الرعاء
تدعو بالويل ، فقلت : ماشأنكم ؟ قالوا : أغارت
بهراء على ابلك ذاسحفتها ، فأمسيت واللّه مالى
مال غير الذود فرمى الله فى عواصيهن بالرغس ،
وانى اليوم لأكثر بنى القين مالا ، وفى ذلك
أقول :

هو الدهر آس تارة ثم جارح
سوانحه مبثوثة والبوارح
فبينما الفتى فى ظل نعماء غضة
تباركه أفيأؤه وتراوح
الى أن رمته الحادثات بنكبة
تضيق به منها الرحاب الفسائح
فأصبح نضوا لاينوء كأنما
بأعظمه مما عراه القوادح
فما خلتنى من بعد عرج عكاس
أقسس أذوادا وهن روازح
جدابير ما ينهضن الا تحاملا
شواسف عوج أسأرتها الجوائج
يميل بها وتركبه بلحسن
إذا ما عن للمحزون أنا
فلا يحزنك أيام تسولى
تذكرها ولا طير أرنأ
وقال الآخر :

وها تفين بشجو بعدما سجعت

ورق الحمام بترجيع وارنان

باتا على غصن بان فى ذرى فنن

يرددان لحونا ذات ألوان

معناه : يرددان لغات ، وصرف أبو زيد منه
فعلا فقال : لحن الرجل يلحن لحنأ اذا تكلم بلغته .
حال : ويقال : لحت له لحنأ اذا قلت له قولأ يفهمه
عنك ويخفى على غيره ، ولحنه عنى لحنأ ، أى فهمه
وألحنته أنا إياه الحانأ ، وهذا مذهب أبى بكر بن
دريد فى تفسير قول الشاعر :

منطق صائب وتلحن أحيأ
نا

قال : يريد : تعوص فى حديثها فتزيله عن
جهته لئلا يفهمه الحاضرون ، ثم قال :
وخير الحديث ماكان لحنأ
أى خير الحديث ما فهمه صاحبك الذى تحب
افهامه وحده وخفى على غيره .

قال : وأصل اللحن أن تريد الشئ فتورى عنه
بقول آخر ، كقول رجل من بنى العبد كان أسيرا
فى بكر بن وائل ، فسألهم رسولا الى قومه ، فقالوا
له : لا ترسل الا بحضرتنا ، لأنهم كانوا أزمعوا غزو
قومه فخافوا أن ينذر عليهم ، فجىء بعبد أسود
فقال له : أتعل ؟ قال : نعم انى لعاقل ، قال : ما
أراك عاقلا ، ثم قال : ما هذا ؟ - وأشار بيده
الى الليل - فقال : هذا الليل ؟ فقال : أراك عاقلا
ثم ملأ كفيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ فقال : لأدرى
وانه لكثير ، فقال : أيسأ أكثر ، النجوم أو النيران ؟
فقال : كل كثير ، فقال : أبلغ قومى التحية وقل
لهم : ليكرموا فلانأ - يعنى أسيرا كان فى أيديهم
من بكر بن وائل - فان قومه لى مكرمون ، وقل
لهم : ان العرفج قد أدبى ، وقد شكت (١) النساء

(١) شكلت النساء : اتخذن الشكوة وهى الوعاء من آدم وبه
ماء أولين .

مجنونا قاعدا على ظهر الطريق بالمربد فكلما مر به
ركب قال :

ألا أيها الراكب اليمانون عرجوا
علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدكم
وحب الينا بطن نعمان وادبا

فسألت عنه ، فقيل : هذا رجل من البصرة ،
كانت له ابنة يحبها فتزوجها رجل من أهل الطائف
فنقلها ، فاستوله عليها .

(٢ : ١٢٦)

٥ حديث شبيب البصري مع بعض الأعراب
الذين نزلوا عليه قال أبو علي أو حدثنا أبو بكر
رحمه الله تعالى قال : أخبرنا أبو عثمان عن التريز
عن أبي عبيدة قال : كان بالبصرة
رجل من موالي بني سعد يقال له شبيب ، وكان
كثير الصلاة صانعا وكانت الأعراب تنزل عليه ،
فنزل به قوم منهم ليلة فلم يغشهم وقا يصلى
فقال رجل منهم :

لخبز يابيت عليه لحم
أحب الى من صوت القرآن
تبيت تدهور القرآن حولي
كأنك عند رأسى عسرباز
فلو أطعمتنى خبزا ولحما
حمدتك والطعام له مكان

واختلفوا فى العقبان ، فقال قوم : هو ذكر
العقارب ، وقال قوم : هو دخال الأذن ، وهو
الوجه .

(٣ : ١٧)

وامرهم أن يعرفوا ناقتى الحمراء فقد أطالوا ركوبها
وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلت معكم
حيسا ، واسألوا الحارث عن خبرى فلما أدى العبد
الرسالة اليهم قالوا : لقد جن الأعور ، ولله ما
نعرف له ناقة حمراء ، ولا جملا أصهب ، ثم سرحوا
العبد ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة ، فقال
قد أنذرکم ، أما قوله : قد أدبى العرفج فان يريد
أن الرجال قد استلأموا ، أى لبسوا الدروع ،
وقوله : شكت النساء ، أى اتخذن الشكاء للسفر ،
وقوله : ناقتى الحمراء ، أى ارتحلوا عن الدهناء
وأركبوا الصمان وهو الجمل الأصهب ، وقوله :
بآية ما أكلت معكم حيسا ، يريد أخلاطا من الناس
قد غزوكم ، لأن الحيس يجمع التمر والسمن
والأقط . فامتلأوا ما قال وعرفوا فحسوى
كلامه .

وأخذ هذا المعنى أيضا رجل من بنى تميم كان أسيرا
فكتب الى قومه :

حلوا عن الناقة الحمراء أرحلکم
والبازل الأصهب المعقول فاصطنعوا
ان الذئاب قد اخضرت برائتها
والناس کلهم بکر اذا شبعوا

يريد أن الناس کلهم اذا أخصبوا عدو لکم
بکبر بن وائل .

ونار الهوى تخفى وفى القلب فعلها
كفعل الذى جادت به كف قاذح

وقال وحدثنا عبد الله بن خلف الدلال قال
حدثنى محمد بن الفضل قال حدثنى بعض أهل
الأدب عن محمد بن أبى نصر قال : رأيت بالبصرة